22- اختراع آلة الطباعة (1440م)

The Invention Of The Printing Press (1440)

كان الصينيون هم أول من ابتكر فن الطباعة . وكان أول كتاب مطبوع عرفته البشرية قد ظهر فى «كانسو Kansu» فى بلاد الصين وهو يحمل تاريخ عام (868م) . وفى عام (1041م) كان الصينيون يستخدمون حروف الطباعة التى تستخدم فى إنتاج نسخ عديدة من المطبوعات . ويحيط غموض كثيف بإنتاج حروف الطباعة فى أوربا ، ويدعى الفرنسيون والهولنديون والإيطاليون والألمان أنهم أول من أنتج حروف الطباعة ، ولكن من المتفق عليه الآن أن أول أوراق مكتوبة بحروف الطباعة فى أوربا قد خرجت إلى حيز الوجود من مطبعة «يوهانس جوتنبرج Johann Gutenberg» ، وهو عامل طباعة فقير كان يعيش فى بلدة مينز Mainz فى ألمانيا حوالى عام (1440م) .

ولعلك تعجب اذا علمت أن الآلة التي ابتكرها جوتنبرج كانت تعمل بنظام آلات عصر العنب ، أو إعداد قوالب الجبن ، بعد تعديلها وتطويرها .

كان جوتنبرج قد أجرى كثيرا من التجارب على حروف محفورة فى الخشب ، ولكن ليونة هذه الحروف المحفورة فى الخشب قد جعلته يشرع فى تجربة حروف محفورة فى المعادن .كان جوتنبرج يقوم برص الحروف المعدنية أوصفها فى قالب واحد لتكوين صفحة كاملة من كتاب ، ثم يطبع الحبر على الحروف ، ثم تضع فوقها الورق ، ثم يضغط عليها بكتلة من الخشب بواسطة مسمار لولبى غليظ .

وكانت محاولاته الأولى فى استخدام الحروف المحفورة فى المعدن تنحصر فى طباعة نصوص من إنجيل مازارين «Mazarin Bible» ، وهو الإنجيل الذى اكتسب اسمه ذاك لأنه قد تم العثور على نسخة منه فى مكتبة الكاردينال مازارين . وتم إعداد هذا الإنجيل للطباعة فى صفحات ، يوجد على كل صفحة عمودان من الكلمات المطبوعة ، وعدد السطور فى كل صفحة كان يبلغ 42 سطرا ، وقد طبع فى عشرة أقسام بواسطة ست آلات من آلات الطباعة . ولقد طبع من هذا الإنجيل ثلاثمائة نسخة لاتزال خمس وأربعون نسخة موجودة منه حتى الآن .

ومن بلدة مينز الألمانية ، انتشرت فن الطباعة بسرعة فى كل أنحاء قارة أوربا ، وتم إدخاله إلى بريطانيا على يد «وليم كاكستون William Caxton» ، وعلى الرغم من مقاومة السلطات الحاكمة والسلطات الكنسية لانتشار فن الطباعة ، لأن الطباعة كانت تهدد هذه السلطات بمزيد من حرية الفكر ، فلقد استطاع فن الطباعة أن يحول ظلمات العصور الوسطى إلى أضواء ساطعة ، واستطاع فن الطباعة أن يزود الحضارة بأداة فعالة لتسجيل التقدم الحضارى الفكرى على مدار وتوالى القرون .

23 - محاكم التفتيش الأسبانية (1480م)

The Spanish Inquisiton (Began In 1480)

إنها سبّة فى جبين التاريخ لا تمحوها الأيام !!

ودليل قاطع على ما ارتكبته الكنيسة الكاثوليكية ، باسم الدين ، كذبا وافتراءً ، فى حق من خالفها من قتل وإحراق وتعذيب فاق الوصف !!

والحديث عن محاكم التفتيش وثيق الصلة بالحديث عن انتهاء الوجود الإسلامى فى الأندلس .. إذ أن الأول كان نتيجة للثانى .. مما يؤكد سماحة الإسلام وسمو تعاليمه ، واحترامه للإنسانية بصرف النظر عن معتقداتها وألوانها.

تفـرقت دولة الإسـلام فى الأندلس بعـد سنوات طويلة من الازدهار والرقى .. وتمزقت تلك الدولة القوية إلى دويلات كثر حكامها ، وانتشر النزاع فيما بينهم ..

وكنتيجة حتمية ، كان لابد وأن تسقط الأندلس ، الفردوس المفقود ، وتولّي أمرها عصبة من القتلة ، أذاقت جميع من خالفهم فى معتقدهم كل ألوان التعذيب التى لم يشهد لها التاريخ مثيلاً .

والأدهى من ذلك وأمرّ أن ذلك كان يحدث بمباركة – البابا ، الحبر الأعظم للمسيحية الكاثوليكية آنذاك !!

❖❖ معاهدة تسليم غرناطة :

لما اشتد حصار الأسبان حول مدينة غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، اجتمع العلماء والفقهاء والقادة فى قصر الحمراء ، واتفقوا على تسليم المدينة ، واختاروا الوزير أبا القاسم عبد الملك لمفاوضة «فرديناند» ملك أسبانيا على شروط التسليم .. واستمرت المفاوضات وقتا طويلاً .. وأخيرا تم التسليم بعد توقيع معاهدة عرفت بمعاهدة تسليم غرناطة ، والتى تضمنت سبعة وستين بنداً ، أهمها :

أن تبـقى كـافة مسـاجـد المسلمين كـمـا هى لا يمسهـا سوء ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم إلا بإذنه .. وأن يبقى كل مسلم فى أرضه آمنا على ماله وأهله .. وأن لا يولّي على المسلمين غير المسلم .. وأن يتمتع المسلمون بحرية كاملة فى إقامة شعائر دينهم ، وأن لا يحمل المسلم أية علامة تميزه عن غيره من النصارى واليهود.. وأن يكون للمسلم حق التنقل إلى أى مكان يشاء .

❖❖ نقض العهود :

وبالطبع فقد كانت هذه البنود مجرد حبر على ورق .. فقد ذاق المسلمون هناك كل صنوف التعذيب والتنكيل .

لقد أصدرت محاكم التفتيش الأسبانية تعاليم مشددة للكاردينال «سيسيزوس» لإحكام القبضة الحديدية على مسلمى الأندلس ، والعمل السريع على إجبارهم على الكثلكة ، أى أن يتحولوا إلى نصارى كاثوليك .. فتم تحويل مسجد غرناطة الجامع إلى كاتدرائية .. وأحرقت المصاحف وكتب التفاسير والفقه الإسلامى !!

كانت مكتبة قرطبة تحتوى ما يقرب من نصف مليون كتاب ومخطوطة .. أحرقت كلها فى ميدان عام ، وأشرف على عملية الإحراق مندوبون عن ملك أسبانيا ورهبان من الكاثوليك .

ويقدِّر بعض المؤرخين عدد مَنْ عُذِّب من المسلمين بعد سقوط غرناطة بثلاثة ملايين نسمة ، قتل من قتل ، وحرق من حرق ، ونجا بنفسه من نجا .. وخربت غرناطة ، والأندلس !!

ولم يكن أمام المسلمين المضطهدين بد من الفرار بدينهم ، أو القتل ، أو الارتداد عن الإسلام .. وهى ثلاثة أحلاها مر ، بعد أن فرضت القيود على الخروج من هناك، إذ كيف يسمح لهم الخروج بدينهم إلى بلاد المغرب ، وهى أقرب الدول الإسلامية إلى الأندلس ، ليكونوا قوة تهدد أسبانيا من جديد ؟

❖❖ مراسيم الاضطهاد:

ولكن ما ذا حدث لمن بقى من المسلمين هناك ؟

لقد عوملوا أسوأ معاملة وصدرت المراسيم الملكية لاضطهادهم .. إذ أصدر عاهلا أسبانيا «فرديناند» و «إيزابيلا» مجموعة من المراسيم المتتابعة زمنيا ، كلها تقضي باضطهاد المسلمين .

إن كل من قرأ التاريخ يعلم جيداً كيف كان «فرديناند» كاثوليكيا متعصبا، وهو الذى قال عبارته المشهورة : يجب أن تكون أسبانيا إما كاثوليكية أو إسلامية!!

وفى هذه العبارة أعرب «فرديناند» عن نواياه ، ففيها الوعيد كله لكل من خالف مذهبه الكاثوليكى !!

* فى يوم الثلاثاء ، العشرين من شهر يوليو عام 1501 م ، صدر أمر ملكى بمنع وجود المسلمين فى مملكة غرناطة ، بعد أن اختار الله الملكين «فرديناند» و«إيزابيلا» لتطهير هذه المملكة من «الكفرة» !!

كما أنه يحظر عليهم – أى المسلمين – أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم ، ويحظر عليهم أيضا الاتصال بمن تنصروا حتى لا يفسدوا عليهم إيمانهم.. وكل من خالف ذلك فجزاؤه الموت ومصادرة أملاكه !!

* وفى يوم الثلاثاء ، الثانى عشر من شهر فبراير ، سنة 1502 ، صدر أمر ملكى آخر يحتم على كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره ، إن كان ذكرا، والثانية عشرة إن كان أنثى ، أن يغادر مملكة غرناطة قبل أول شهر مايو التالى .. ويسمح لمن أراد الخروج أن يتصرف فى أملاكه وأمواله على أن لا يكون الخروج إلى شمال إفريقيا ، وليكن الخروج إلى بلاد أخرى .

وأين تلك البلاد الأخرى ؟!

وكل مخالفة للأمر تجعل صاحبها عرضة للموت والمصادرة .

ولما كان بعض المسلمين قد تظاهروا باعتناق النصرانية ليبيعوا أملاكهم ثم يفرون إلى شمال إفريقيا .. فقد صدر أمر ملكى جديد :

* فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة 1502 صدر أمر ملكى جديد يحظر على هؤلاء الذين تنصّروا من التصرف فى أملاكهم قبل مضي سنتين .. كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة «قشتالة» إلا إلى مملكتى «الأراغون» و«البرتغال» !!

وهما مملكتان مسيحيتان !!

لم يكن من السهل على المسلم أن يغير دينه ، ولذا كان المسلمون المتنصرون، وكذا اليهود المتنصرون ، وحتى المسيحيين الذين تركوا مذاهبهم إلى المذهب الكاثوليكى ، كان هؤلاء جميعا يؤخذون بأقل شبهة ، ويوضعون تحت مراقبة شديدة.. هل تركوا دينهم الأصلى بالفعل واعتنقوا «الكثلكة» أم أنهم يتظاهرون بذلك ؟

إن كل مسلم أعلن تنصره يعد مرتداً عن ذلك إلى الاسلام ، إذا ما احتفل بيوم الجمعة ، كأن لبس ثوباً جديداً أو اغتسل .. أو ختن أولاده ، أو سماهم بأسماء عربية .. أو أمعن فى غسل أعضاء الوضوء .. أو غير ذلك مما يشير إلى تعلقه بالإسلام حتى ولو لم يؤدّ شعائره !!

ومن هنا بدأت محاكم التفتيش فى نشر عيونها وجواسيسها فى كل مكان للتأكد من إيمان «الكفرة» وتحولهم من دينهم الرسمى إلى المسيحية الكاثوليكية .

فى الثانى عشر من شهر مارس عام 1524 أصدر البابا مرسومًا يحث فيه رجال التفتيش «قضاته ومفتشيه» بأن يعجلوا بإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية الكاثوليكية ، ومن أبى من المسلمين فعليه أن يخرج من أسبانيا ، وأمهلوهم مدة ، فمن لم يعتنق المسيحية أثناءها كان جزاؤه أن يصبح رقيقًا عبداً طوال حياته !!

وعقد «شارل الخامس» اجتماعًا حضره أعضاء مجلسى «قشتالة» و«الأرغوان» والقساوسة، والأحبار ، والمفتشون ، والقادة ، ونظروا فيما يجب عمله بعد صدور مرسوم «البابا» .. وأجمعوا على أن مسيحية المتنصرين الجدد صحيحة ، وأنه يجب على كل المتنصرين أن لا يغادروا أسبانيا لأنهم مسيحيون ، وأجبروا على تعميد أولادهم ، والذهاب إلى أكبر كنيسة ليطهروا أنفسهم مما كانوا عليه من «الكفر» !!

ولما عادوا من الكنيسة علموا بأن من يرجع عن مسيحيته يحكم عليه بالإعدام ومصادرة الأموال !!

كأن الإعدام هو مصير كل منهم ، سواء اعتنق الكثلكة أم لم يعتنقها !!

وفى الثامن عشر من شهر نوفمبر عام 1525م ، صدر أمر يوجب على المسيحيين أن يبلغوا «الديوان المقدس» كل ما يأتيه المتنصرون الجدد من ردة أو مخالفة للمسيحية ، أو ما يوجب الشبهة فى سلوكهم .. وألزم المسلمون بوضع شارة زرقاء فى قبعاتهم ، وبتسليم كل أسلحتهم ، وحظر عليهم حيازة شىء منها بعد ، ومن ضبط معه سلاح فجزاؤه الجلد !!

كما ألزمهم المرسوم بالسجود فى الطرقات إذا ما مر أمامهم حبركبير !!

❖❖ اتساع دائرة الاضطهاد:

لم يكن «الديوان» نشيطاً فقط فى اضطهاد المسلمين ، وإجبارهم على التنصر وتعذيبهم ، بل اتسعت دائرة الاضطهاد لتشمل كل من خالف المذهب الكاثوليكى، من المسلمين واليهود ، والمسيحيين غير الكاثوليك !!

واستمر الديوان فى طغيانه وجبروته حتى احتل الفرنسيون أسبانيا ، وصدر الأمر من نابليون بإلغائه سنة 1808م .. إلا أنه عاد مرة أخرى فى عهد «فرديناند السابع» ملك أسبانيا عام 1814م .

❖❖ كيف بدأ ديوان التفتيش ؟

فى عام 1329م اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية فى إحدى المدن الفرنسية ، أمام البابا «غريغوريوس» التاسع ، اجتماعاً تمهيديا لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم فى عقيدته الكاثوليكية ، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد الكاثوليك ، أمثال : اليهود ، والبروتستانت ، وجماعة المفكرين الأحرار ، والمسلمين الذين كانوا فى أوربا (أسبانيا والبرتغال) ، وكل من يتهم بالإلحاد والزندقة فى مسيحيته الكاثوليكية .

إلا أن البابا لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية ، والعمل بما رآه المجتمعون ، إلا فى سنة 1333م ، فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص للبحث عن كل من يتهم فى مسيحيته الكاثوليكية ، وتقديمه إلى محكمة بابوية خاصة !!

ويجوز لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازمًا من الجواسيس لمساعدته، وكان يطلق على تلك المحكمة البابوية الخاصة اسم «الديوان المقدس» أو «التفتيش المقدس».

ولم يكن أولئك الجواسيس معروفين ، بل أُخفيت أسماؤهم عن الناس ووُعدوا بغفران خطاياهم ، وأحل لهم ارتكاب الجرائم فى سبيل تحقيق مهمتهم ، ولا عقاب عليها، فقد غفرت ذنوبهم !!

كان المتهم يُسأل أمام المحكمة عما يعتقده صراحة عن الكنيسة والدين المسيحى.. فإن أبى الإذعان دُفع به إلى معذِّبين متخصصين يسومونه سوء العذاب !!

وظل ديوان التفتيش يعمل فى فرنسا ، تارة جهرة وتارة أخرى خفية ، تبعا لآراء الملوك الذين تتابعوا على البلاد .. حتى كانت الثورة الفرنسية عام 1789م حيث تقرر إلغاء الديوان ، وانتقم الشعب من رجاله ، وهرب بعضهم إلى أسبانيا والبرتغال لينضموا إلى رفقائهم هناك !!

وعلى الرغم من أن ذلك «الديوان» وتلك المحاكم كانت معروفة فى فرنسا وإيطاليا وبلاد أخرى من أوربا ، إلا أن أفظعها وأكثرها وحشية ما قامت به دواوين ومحاكم شبه جزيرة أيبربا «أسبانيا والبرتغال» .. حتى قدَّر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بنحو عشرة ملايين برىء فى الفترة ما بين عامى 1333م ، 1835 .. أى نحو خمسة قرون، بمعدل مليونى برىء لكل قرن !!

إلى أن انتهت تلك المحاكم بعد أن لطخت وجة أسبانيا بعارها ، وبالدم الإنسانى المسفوك ، لا لشىء إلا لنصرة الكثلكة !!

❖❖ وصف سجون التفتيش :

يجب أن نعلم بداية أن سجون التفتيش هى الاسم الصحيح لما كان يطلق عليها كذبًا وتضليلاً – دور الديوان المقدس !!

فكيف كانت تلك الدور المقدسة ؟

كانت تلك الدور عبارة عن مجموعة من القصور والأديرة والسجون .. ولازالت آثارها فى أسبانيا والبرتغال باقية حتى الآن .

ففى أسبانيا تتميز هذه الدور بجدرانها الضخمة ، ونوافذها الحديدية التى اعتراها الصدأ ..

وداخل الديوان ترى غرفًا صغيرة ، يمكن الوصول إليها من خلال ممر ضيق ، ويصل النور إليها من خلال فتحة صغيرة فى السقف ، وقد أحكم سد الفتحة بقضبان الحديد الغليظة .

وفى أرضية الممر فتحات أخرى صغيرة .. تبعد كل فتحة عن الأخرى نحو متر ونصف المتر ، وقد أحكم سدها أيضا بالحديد .. وقد خصصت هذه الفتحات للمسجونين فى الغرف السفلى تحت الممر وأسفل هذه الغرف غرف أخرى ، وهى سجون سرية لا يهتدى إليها إلا رجال الديوان فقط !!

كانت جدران الغرف تطلى بالشحم ، وذلك حتى لا يتمكن السجين من تسلقها محاولا الهرب .. ولكن إلى أين يهرب ؟!

وفى جانب من الديوان توجد بعض أدوات التعذيب ، كالسياط التى بها قطع الحديد الشائك ، لجلد المسجونين وإهراء لحومهم .. وقدور من الحديد لعلها كانت تستخدم لصهر الحديد أو لقلى الزيت الذى يصب فوق المسجونين .. بالإضافة إلى مستودع كبير من الفحم المستخدم فى ذلك !!

وعلى الرغم من أن تلك السجون كانت دائمًا رطبة ومظلمة ، فقد كان يصب فيها الماء باستمرار حتى تظل الأرض مبللة بالدماء التى تسيل من أبدان المعذبين مشبعة بها !! هذا وصف موجز لنموذج من سجون التفتيش فى أسبانيا، أو بمعنى أدق «لدور الديوان المقدس هناك» !!

أما فى البرتغال فكانت محكمة «ديوان التفتيش» العامة بمدينة لشبونة ، فى مكان الملعب الوطنى هناك ..

وقد بنيت هذه الدور بطريقة تؤدى الغرض من إنشائها ، فكانت ذات غرف عديدة، وطرقات مظلمة تحت الأرض .. وفى وسطها أربع قاعات كبيرة فسيحة .. وفى الممر الأسفل الذى يحيط بكل قاعة سجون صغيرة وضيقة ، حالكة الظلام ، وقد أعدت لمن هم أشد كفراً وضلالاً !!

كانت حجرات السجن تقع فى ثلاثة طوابق .. خصص الطابق العلوى لمن كانت ذنوبهم خفيفة ، وهؤلاء يصلهم قليل من الضوء .. أما الطابق الأوسط فهو للنساء ، حيث يتردد عليهن رجال الديوان من وقت لآخر للتمتع بهن والعبث بعفافهن !!

أما الطابق الأسفل فهو لمن هم أشد كفراً وضلالاً فى نظر رجال الكنيسة ، وكان السجين فيها لا يرى النور أبدا ، ولا يعرف الليل من النهار !!

أما القاعات التى تتوسط المبنى ، فكانت فسيحة فخمة ، فرشت بأجمل وأندر الأثاث ، فهى معدة لرجال «المحكمة المقدسة» يأكلون ما لذ وطاب ، ويحتسون الخمور ، ويطربون على أنين وصراخ المعذبين !!

لم يكن يسمح للسجين أن يهمس بكلمة أو يسمع له صوت شهيق أو زفير!! حتى إن أحد المسجونين أصيب بالسل بعد أن قضى زمنا طويلا فى زنزانته الرطبة المظلمة الموحشة ، فأخذ يسعل رغم إرادته .. فأنذره الزبانية ألا يعود إلى السعال بعد ، فأجاب وهو خاشع ذليل أن هذا رغما عنه ، وأنه لا يمكنه الانقطاع عن السعال .

واشتد عليه المرض ، فأكثر من السعال ، فاقتيد إلى المحاكمة ، فقضت عليه بالضرب .. فضرب حتى سقط ميتًا بين أيدى جلاديه ، فاستراح من تعاسته، ومن مرضه .. ومن العذاب !!

ويقال إن كثيرين ممن نزلوا فى ضيافة تلك السجون المظلمة كانوا يفقدون عقولهم فيها ويقضون نحبهم هناك لما يشاهدونه من آلات التعذيب !!

❖ ألوان التعذيب .. وفنونه :

نعم للتعذيب ألوان .. وللتعذيب فنون ..

هذا ما كنت أجهله قبل ذلك .. إلى أن أيقنت حقيقتهما من تاريخ تلك الحقبة السوداء فى حياة البشرية .. وما أوقعه عصبة الكاثوليك بغيرهم من الأبرياء باسم الدين والرب !! تصف كتب التاريخ هذا المشهد الذى يمكن أن يقال عنه : إنه «حفلة حريق» .

يتقدم الموكب كاهن يرتدى حلة بيضاء ، ويحمل صليبا أسود فى يده ، يترنم بترانيم الموت .. يمرّ أولاً أمام عرش الملك ، ويعود فيقف فى الساحة .. ثم يأتى فريق من الكهنة بثياب بيض وصلبان سود (وهى رمز ديوان التفتيش) ، ويترنم الكهنة ويمرون أمام العرش ثم يقفون .. ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء حاملين صلبانا سوداء ، فيفعلون مثل من سبقهم .. ثم يمر المحكوم عليهم بالحرق وقد غطتهم الأوساخ والقاذورات التى قذفهم بها متعصبة الناس ، ظانين أنهم بذلك يمجدون الله !!

وكان يحيط بهؤلاء المذنبين (أو الكفرة كما كانوا يسمونهم) السجانون وجنود الديوان والرجال المنوط بهم إجراء التعذيب ، فإذا ما وصل السجناء إلى الساحة ، أُصعدوا إلى أكوام عالية من الحطب ، وفى وسط كل كوم صليب مثبت لكى يموت المعذبون وهم ينظرون إلى ذلك الصليب !!

ثم يرتقى رئيس المحكمة منصة عالية ليتلوا الحكم الصادر بحق هؤلاء الزنادقة الكفرة .. ويقول :

إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالا ونساءً لأنهم من اليهود أو المسلمين ، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكى ، وأنهم قد استخفوا بالأحكام المقدسة ، وأنهم قد اتخذوا الشيطان عدوّ البشر وليا وحقّروا الكنيسة وهم لا يأتون ثمراً !! لذا وجب قطعهم وحرقهم بالنار عملاً بقول السيد المسيح له المجد: من ليس معنا فهو علينا ، وأن كل شجرة لا تثمر وجب قطعها وإلقاؤها فى النار ، إن الذنب ذنبهم ، ودماؤهم على رؤسهم .

وما أن ينتهى من تلاوة ذلك الحكم حتى يصرخ أحد الكهنة باللاتينية : المجد لسيدتنا والدة الإله ، ومبارك كل مؤمن طائع !!

وعندئذ يمد الناس أيديهم لنوال البركة !!

ثم يتقدم الكاهن مرة أخرى من المجرمين ليعرض عليهم التوبة وتقبيل الصليب ، فمن أبى لُعن لعنة أبدية .. ومن تردد وساوره الخوف ووعدهم بأن يبوح لهم بأسماء غيره ممن يبحث عنهم الديوان ، وأن يصرح بما يفكر فيه ويعلن لهم توبته واستغفاره، يعاد إلى السجن مرة أخرى للتأكد من ذلك .

وعندما يصدر الأمر إلى الجلادين بإضرام النار .. يعلو الصراخ والعويل ، وتتصاعد روائح احتراق الأجسام فى الجو .. يحدث هذا بينما يرقص الشعب ويسبح الكهنة !!

وعندما تخمد النيران ، وتصبح الجثث رماداً ، ينصرف الملك وحاشيته ، تشيعهم دعوات الشعب وبركات القساوسة !!

وهناك لون آخر من ألوان التعذيب والإحراق .. فقد كان يُطاف بالمحكوم عليهم بالموت أو بالحرق أسواق المدينة قبل تنفيذ الحكم بيومين ، وهم مكبلون بالأغلال والقيود الحديدية ، تحيط بهم فرقة من الجنود المسلحين بالسيوف .. وفى نهاية المطاف يحشر أولئك المعذبون فى سجن واحد انتظاراً للحظة التنفيذ !! وعند منتصف ليلة التنفيذ يأتى إلى السجن مجموعة من الجنود والقوّاد والقساوسة ليبلغوا هؤلاء

التعساء بقرب النهاية التى لا مفر منها .. ويحاول القساوسة أن يجبروهم على الاعتراف والتنصر وطلب الغفران ، إلا أن تلك المحاولات كانت عادة ما تبوء بالفشل.. بعد ذلك تكمم أفواه هؤلاء المساكين، ويلبسون لباسًا خاصا بالإحراق وهو عبارة عن قميص أصفر ، غمس فى شحم وزيت وقطران ، بعد أن رسم عليه صور شياطين وأفاعى .. ثم توضع على رؤسهم قبعات من ورق عليها مثل تلك الرسوم !!

وكان يؤتى بالسجناء الآخرين ، الذين لم تأت بعد لحظة تنفيذ الحكم فيهم ، ليروا بأعينهم ما يحدث لزملائهم لحظة إحراقهم ، ولعل هذا أقسى أنواع الإرهاب والتهديد !!

ومع بزوغ فجر اليوم الموعود ، يحضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأخذ كل منهم مكانه ، ويقوم بما عهد إليه من عمل عند تنفيذ الحكم .

ثم يخرج السجناء من سجنهم إلى ميدان فسيح أمام السجن ، ليجدوا فى انتظارهم مائدة عامرة عليها ما لذ وطاب من صنوف الطعام والشراب والخمور المعتقة.. ثم يؤمرون بالجلوس وتناول آخر طعام لهم فى دنياهم !!

وهذا بلا شك لون آخر من أشد ألوان التعذيب النفسى .. إذ كيف يجلس إلى تلك المائدة ليأكل منها مثل هذا الذى يساق إلى الحرق ؟!!

أما على الجانب الآخر من هذه المائدة هناك مائدة أخرى عليها أطواق حديدية توضع فى الرقاب ، وقطع من الخشب توضع فى الفم على هيئة لجام الفرس .. ثم يؤمر كل واحد من هؤلاء التعساء بوضع طوق حديدى فى رقبته واللجام فى فمه .

ويأتى الرهبان بملابس حمراء وقلائد ذهبية .. ثم يتقدم الملك ورجال البلاط والسلطة ورجال القضاء ، ويقف جموع الشعب لمشاهدة حرق «الكفار» !!

يتقدم رئيس الديوان من منصة الملك ، ويقف إجلالا واحترامًا له ، هو ومن فى حضرته من الأساقفة ثم يقف مخاطبا الملك الذى يحمل فى يده صليبا :

يا صاحب الجلالة ، بينا تحمل فى يدك هذا الصليب المقدس ، ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على أن تدعموا الديوان المقدس ، وأن تثبّتوا سلطتنا فى البلاد .

فيقْسم الملك يمينا يمليه عليه الأساقفة أمامه ..

ويستمر رئيس الديوان فى القول :

وأن تُقسم يا صاحب الجلالة على أن كل ما يعمله ديوان التفتيش ، وكل ما يجريه من أحكام فهو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية .. وأنه أيضا مطابق

لشرائع بلادكم التى ترمى إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية .

فيقسم الملك على ذلك ..

ثم يقول الرئيس بعد ذلك : ليبارك الله جلالتكم ، وليمكنكم من الحكم طويلا فى الأرض مادمت سنداً لشرائع الديوان المقدس ، وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية .

ثم يجلس الملك ، ويتقدم إلى وسط الميدان رجل كبير الهامة ، ضخم الجثة، جهورى الصوت ، إنه كاتب الديوان ، فيقف على منصة مرتفعة ويأخذ فى تلاوة صورة الحكم فى ورقة فى يده ، والناس فى صمت ، وكأن على رؤوسهم الطير !!

يصعد «الكفرة المساكين» إلى المحرقة ، فوق أكوام الحطب ، وهناك يربطون بالحبال فى أعمدة مثبتة .. ثم يصعد كاهن وفى يده صليب من العاج ، يعرضه على كل مسكين ليقبّله قبل حرقه ،.. فإذا ما انتهى الكاهن من طقوسه أضرمت النيران فى الحطب دفعة واحدة ، بينما يترنم الكهنة ويصلون !!

◆◆ الجواسيس فى كل مكان :

وأثناء ذلك يبدأ الجواسيس فى مباشرة أعمالهم .. يتفحصون وجوه الحاضرين من الشعب .. يستمعون لما يقال همسًا .. فمن تأفف ، أو اشمأز ، أو أظهر عطفا ، أو أشاح بوجهه ، كل هؤلاء كان يتم القبض عليهم فورا ليساقوا إلى السجون ويضموا إلى قوائم الكفرة !!

يقول «يوجين بيليتان» فى كتابه «ديوان التفتيش» :

لقد مرّ على أسبانيا حين من الدهر تحوّلت فيه إلى بؤرة جواسيس ووشايات يسوعية هائلة .. مثال على ذلك :

أبلغت سيدة مسيحية «الديوان» بأن أحد المتنصرين المسمى «خوان مدنيا» قد عاد إلى إسلامه ، وكان ذلك فى شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 1528م ، وقالت إنها كانت تسكن مع أسرته سنة 1510م فى منزل ، وكان هو يقيم مع ابنيه وابنته وصهره ، فلاحظت أنهم لا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون الخمور أبداً ، وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط بصفة مستمرة ..

وكان «خوان» هذا رجلاً هرمًا جاوز السبعين من عمره ، ويعمل فى صناعة الأوانى النحاسية ..

استدعت المحكمة «خوان» لاستجوابه ، فقال إنه اعتنق الكثلكة سنة 1502م، ولا يذكر أنه مارس شيئًا من تقاليد المسلمين وعاداتهم .. أما عن امتناعه عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، فذلك لأنه لم يتعود على ذلك ، حيث تنصر وهو فى سن كبيرة ، وهو فى الخامسة والأربعين تقريبا .. أما عن استحمامه وغسل رجليه بصفة مستمرة ، فلأن حرفته تقتضى ذلك .

وعبثا حاول الرجل أن يبرئ نفسه ، ويثبت أنه شديد الإخلاص للكنيسة الكاثوليكية .. وحكم عليه بالسجن .

وفى عام 1560م ، قبض على شيخ متنصر ، وهو فى سن السبعين ، لأنه كان يطالع كتابًا عربيا فى التوحيد الإسلامى .. ولم ينكر الرجل أمام المحكمة ما نسب إليه، إلا أنه عارض فى اعتباره كافراً ، فهو شديد الولاء للكنيسة .. ومع ذلك حكم عليه بالسجن ، كان الرجل مريضًا ، فتوفى بالسجن ، فعملوا له تمثالاً وأحرقوه ، إلا أن الديوان حكم بعد ذلك باستخراج جثته من القبر وحرقها علنا فى حفلة حريق .. وأن يلحق كفره وإثمه بأسرته ، فلا يحق لأحد من الأسرة أن يشغل وظيفة فى الدولة.. ثم صدر أمر بعد ذلك بمصادرة أمواله !!

❖❖ تهم كثيرة .. وغريبة :

لم يكن الجواسيس يواجهون المتاعب فى البحث عن التهم التى يلصقونها بالمتهم.. فما أكثر تلك التهم !!

ومنها .. قراءة الكتب العربية .. كثرة الاستحمام خاصة يوم الجمعة .. غسل أعضاء الوضوء عند المسلمين .. الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر .. ختان الأولاد .. صبغ اليد بالخضاب .. تكفين الميت بأثواب جديدة .. الدفاع عن محمد ﷺ ولو بكلمة ، أو ذكره بكلمة طيبة .. وغير ذلك كثير .

وكان عقاب من يضبط متلبسًا بشىء من ذلك هو السجن والتعذيب حتى تثبت إدانته فيجلد أو يحرق .. وقبل ذلك ، يطاف به فى المدينة راكبا حماراً ، وقد عُلّق بظهره لوحة كتب فيها اسمه ، والتهم المنسوبة إليه .

❖❖ شاهد عيان :

يقول الكولونيل «ليمونسكى» أحد ضباط الحملة الفرنسية فى أسبانيا :

كنت فى سنة 1809م ملحقا بالجيش الفرنسى الذى كان يقاتل فى أسبانيا ..

وكان الإمبراطور نابليون قد أصدر مرسومًا سنة 1808م بإلغاء دواوين التفتيش فى المملكة الأسبانية ، ولكن هذا الأمر أُهمل ولم يُعمل به بسبب الحالة الحربية والاضطرابات السياسية التى كانت سائدة آنذاك .

ولذلك صمم رهبان «الجزويت» – اليسوعيين – أصحاب ذلك الديوان أن يقتلوا ويعذّبوا كل فرنسى يقع فى أيديهم انتقاما من ذلك القرار !!

وبينما أسير فى إحدى الليالى فى أحد شوارع مدريد الخالية من المارة إذ فاجأنى مسلحان يريدان قتلى ولم ينجنى منهم سوى سرية من الخيالة الفرنسية كانت تطوف فى ذلك المكان لحفظ النظام .

وعلمنا أن هذين المسلحين من جنود ديوان التفتيش .. فأسرعت إلى الماريشال «سولت» الحاكم العسكرى لمدريد وأبلغته بما حدث فغضب وقال : أنا على يقين بأن من يُقتل من الجنود كل ليلة إنما يكون بأيدى هؤلاء الأشرار، ولابد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور .. ثم طلب منّى أن آخذ ألف جندى وأربعة مدافع لمهاجمة دير ديوان التفتيش ، والقبض على ما فيه من رهبان .

وعند الساعة الرابعة صباحًا سرتُ على رأس تلك الحملة وقصدنا دير «ديوان التفتيش» .. كان الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بالقلاع ، له أسوار عالية جداً ، يحرسها فرقة من جند اليسوعيين ، فتقدمت من باب الدير وخاطبت الحارس وأمرته باسم الإمبراطور نابليون أن يفتح الباب .. إلا أن الحارس بعد أن تكلم مع أناس بالداخل خرج علينا بوابل من رصاص بندقيته ، ثم انهالت علينا نيران البنادق من كل مكان .. فقتل بعض رجالى وجرح البعض .. عندئذ أمرت جنودى باقتحام الدير عنوة .. وبعد نحو نصف ساعة سقط الدير فى أيدينا .. وأسرع رهبان اليسوعيين للقائنا مرحبين بوجوه باشة ، مستفهمين عن سبب قدومنا .. وكأنهم لا يعرفون شيئًا!!

وانهالوا على جنودهم تعنيفا وتأنيبا لمقاومتهم لنا وإطلاق النيران علينا .. وقالوا : إن الفرنسيين أصدقاء لنا ، فمرحبا بهم !!

واتضح لى أنها حيلة من هؤلاء القساوسة .. وأخذنا نبحث عن قاعات التعذيب المشهورة ، وطفنا بغرف الدير ، فرأينا ما بها من أثاث فاخر ثمين ، ورياش وكراسى فخمة ، وسجاجيد فارسية ، ولوحات نادرة ، ومكاتب كبيرة ، وقد صنعت أرض تلك الغرفة من خشب الموجنة المصقول المدهون بالشمع !!

وكان شذى العطور يعبق فى أرجاء تلك الغرف ، فهى أشبه بالقصور الفخمة الكبيرة التى لا تكون إلا لملوك الترف !

لم نعثر على شيء من غرف التعذيب بعد أن فحصنا كل الدير وممراته .. فعزمنا على الخروج من الدير ، بعد أن أكد لنا الرهبان أن وجود مثل تلك الغرف فى الدير ما هو إلا تهمة كاذبة باطلة أو أنها حديث خرافة ، ولكنهم يتحملون ذلك فى سبيل الله !!

وقد أكد لنا رئيسهم ذلك بصوت خافت ، وهو خاشع الرأس .

❖❖ المفاجأة :

أمرت جنودى بالخروج من الدير .. إلا أن أحد ضباطى استسمحنى وقال لى: أتسمح لى يا حضرة «الكولونيل» أن أقول لك إن مهمتنا لم تنته بعد .. وأبدى رغبته فى فحص أرضية هذه الغرف .. وقال : إننى أعتقد أن السر يمكن وراء هذه الأرضيات الفخمة ، فأذنت له .

عندئذ نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات لها مدلولها !!

أمر الضابط الجنود برفع البسط عن الأرض ، فرفعت ، ثم صبوا ماءً كثيرا فى أرض كل غرفة على حدة .. فوجدنا أن الماء تبتلعه أرض إحدى الغرف .. وعندئذ قال الضابط مهللا : لقد حُلَّ اللغز .. هذا هو الباب ، انظروا .. فنظرنا ، وإذا باب قد ظهر ، وهو جزء من أرضية الغرفة يفتح بطريقة شيطانية ، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس !!

أخذ الجنود فى تكسير ذلك الباب المريب وسط ذهول عصابة اليسوعيين !!

وفتح الباب ، فظهر سلم يؤدى إلى باطن الأرض .

ويواصل الكولونيل «ليمونسكى» حديثه قائلاً : أخذتُ شمعة وهممت بالنزول إلى باطن الأرض ، فوضع أحد اليسوعيين يده على كتفى قائلاً : لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ، لأنها شمعة مقدسة !

فأجبته : هذا حق ، فإنه لا يليق بيدى أن تتنجس بشمعتكم الملوثة بدماء الأبرياء.. وسنرى الآن من هو القاتل السفاك ؟!!

وهبطت إلى السلم ومعى مجموعة من الضباط والجنود حتى وصلنا إلى آخر

الدرج ، فإذا بنا في غرفة كبيرة مربعة، في وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل كانوا يقيدون بها المساجين .

◆◆ في غرف التعذيب :

يقول الكولونيل : ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية.. كانت كثيرة ، وكلها تحت الأرض .. رأينا غرفًا صغيرة بحجم جسم الإنسان ، بعضها رأسي وبعضها أفقي .. يبقى سجين الرأسية واقفا على رجليه مدة سجنه حتى يقضي عليه .. ويبقى سجين الأفقية ممدداً حتى الموت .. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى !!

ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية فقد فتحت كوّة صغيرة إلى الخارج . وقد عثرنا على هياكل بشرية لا تزال في أغلالها سجينة مقيدة !!

وقد تمكنا من تخليص بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على وشك الموت، وقد أصابهم من الجنون ما أصابهم !!

أما في غرف آلات التعذيب فكان هناك آلات لتكسير العظام وسحق الأجسام .. وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين ..كل ذلك على سبيل التدرج حيث تأتي الآلة على كل الجسد ، فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة .

وعثرنا هناك على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، يوضع فيه الرأس بعد أن تربط الأيدي والأرجل بالسلاسل ، فلا يقوى صاحبها على الحركة، وتقطر على الرأس من ثقب في أعلى الصندوق ، الماء البارد ، وقد جنّ الكثير بسبب ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف ، ويبقى المعذب على حالته هذه حتى الموت !!

وهناك آلة أخرى للتعذيب تسمّى «السيدة الجميلة» !!

وهي عبارة عن تابوت يبدو على هيئة صورة سيدة جميلة تستعد لمعانقة من ينام فيه وقد برز من جوانب تلك السيدة الجميلة عدة سكاكين حادة .. حيث يطرح الشاب المعذّب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه بعنف ، فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه !!

آلات عديدة ومتنوعة .. كل منها تفوق الأخرى بشاعة وإرهابا !!

ولما شاهد الناس ذلك ، ورأوا تلك الآلات رأى العين ، جُنَّ جنونهم ، واشتاطوا غيظًا ، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام ، فدقت عظامه .. وأمسكوا مساعده وزفّوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه أبوابها فمزقت جسده !!

ولم يمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهبا من تلك العصابة الآثمة ، ثم أخذ الشعب ينهب ما فى الدير !!

ثم يقول الكولونيل : ويمكننى أن أقول بأن ذلك اليوم كان أعظم يوم تاريخى شهده العالم بعد يوم الباستيل .. والحق أقول : إن القلم واللسان ليعجزان عن وصف ما رأيناه فى ذلك الدير من الفظاعة والبربرية التى لا تخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هم أيضا عن الإتيان بمثل هذه الأعمال .. (انتهت شهادة الكولونيل الفرنسى) .

❖ التعصب الأعمى :

أما الدافع وراء هذه الأعمال البشعة من قتل وإحراق ، فلم يكن إلا هذا التعصب الذى أعمى القلوب وطمسها ونزع منها الرحمة ، وهذا ما حدث بالفعل ، ولنرجع فى ذلك إلى الخلفية التاريخية .

ففى عام 1479 م اتحدت مملكتا «الأراغون» و «قشتالة» .. وكان «فرديناند» ملكا على الأولى ، و «إيزابيلا» ملكة على الثانية .. وكلاهما مسيحى كاثوليكى متعصب !!

كانت «إيزابيلا» قد وقعت تحت تأثير أحد الرهبان الكاثوليك المتعصبين ويدعى «توركويمادا» وعاهدته على تكريس حياتها لاستئصال «الكفرة» من البلاد إن هى وليت الحكم وصارت ملكة على البلاد !

وبالفعل صارت إيزابيلا ملكة ، وعندئذ أفصحت عن نواياها حين قالت : إن حب المسيح والعذراء جعلنى أميل لارتكاب الأعمال المؤدية للبؤس والشقاء وخراب البلاد والملك !!

عيَّنت «إيزابيلا» و «فرديناند» ذلك الراهب الكاثوليكى «توركويمادا» رئيسًا عامًا لديوان التفتيش بأمر من البابا ، فكان أول رئيس لهذا الديوان .. ويذكر التاريخ أن هذا الشرير المتعصب حرق خلال توليه رئاسة الديوان المقدس سبعة عشر ألف شخص ، وبعد موته أمر البابا بأن تكون محكمة التفتيش مختلطة من جميع طبقات الرهبان ، وأن تصدر الأحكام باسم البابا ، ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم «المحكمة المقدسة» !!